نورمان سولمون

نورمان سولمون هو المدير التنفيذي والمؤسس لمعهد الدقة في المعلومات المتعلقة بالقضايا العامة. وهي عبارة عن ملتقى لمجموعة من الباحثين والصحفيين والمحللين في قضايا السياسة والإعلام. له عشرة كتب، آخرها كتاب استهدف العراق: ما لم تسمعه من وسائل الإعلام، وهو بالاشتراك مع مراسل الشؤون الخارجية ريس إرليتش (كونتكست بوكس، 2003).

جيرمي إيرب: هل لك أن تحدثنا حول المناخ الإعلامي عقب 11 سبتمبر، وما إذا كانت وسائل الإعلام متورطة في الدفع نحو الإسراع بشن الحرب على العراق؟ وهل لاحظت وجود نمط إعلامي يساعد على تعزيز الدعم الشعبي للحرب ولقدرة حكومة بوش على إدارة الحرب؟

لقد كانت أحداث 11 سبتمبر أداة لإسكات الناس، وإثارة قدر عظيم من الخوف. والحقيقة هي أنه وبعد 11 سبتمبر مباشرة، أسكتت وسائل الإعلام، وأسرع الصحافيون، باستثناء بعض الحالات البارزة، إلى الاختباء. ولذلك وجدنا أنفسنا وسط ديناميكية جديدة، وأصبح النقاش الذي هو أصلاً ضعيف في وسائل الإعلام الدارجة، أصبح أكثر تقييداً. فانتشر الخوف انتشار المرض المعدي في كل مكان. لم يطلب من أي أحد في وسائل الإعلام أن يخفف لهجة التهكم والسخرية من بوش. ولكنك عندما تفكر بما حدث، فستجد أن الرئيس بوش كان في الأشهر الأولى من حكمه محلاً للسخرية والاستهزاء في وسائل الإعلام، وكان الحديث يدور حول كونه شخصاً غير كفء استطاع تجاوز حدود عدم كفاءته وفي غضون الأيام القلائل التي أعقبت 11 سبتمبر، قامت وسائل الإعلام بترقية

الرئيس بوش إلى مستوى الرئيس الأمريكي السابق فرانكلن ديلينو روزفلت. وفجأة، أصبح بإمكانه قراءة نص الخطاب المكتوب له والمعروض عبر جهاز التليبرومت أمام جلسة مشتركة للكونغرس. وأصبح لسان حال الأعلام يقول: لقد قللنا من شأن هذا الشخص! إنه حقاً شخصية فذّة! وانتقلت مكانته في الإعلام، بين العاشر والعشرين من سبتمبر، من الحضيض إلى أعلى القمة.

جيرمي إيرب: ما هو تقديركم لأداء وسائل الإعلام منذ بداية الحرب؟ كيف تقومون العمل الذي أدوه كصحافيين يعملون في دولة ديمقراطية؟

يكمن جوهر الديمقراطية فيما يحدث كل يوم، وليس فيما نقش على حجر أو دوّن في مخطوط حول حرية التعبير. وأعتقد أن التغطية الإعلامية للحرب في العراق عام 2003 كانت جزءاً من نمط شاهدناه مراراً وتكراراً، حيث نجد أن أشخاصاً مثل دان راذر، أو كريستيان آمانبور وغيرهم من رموز الإعلام الذين سايروا أجندة الحرب. لكن وبعد أن يتوقف القتال، ينتابهم شعور بالذنب والخزي، ويبدأون بالإفصاح عما يشبه الاعتراف بالذنب والخطيئة. وهذا أشبه ما يكون بما قاله مارك توين في وصف سهولة الإقلاع عن التدخين، حين قال:" إنه أمر سهل جداً، لقد فعلت ذلك آلاف المرات."

لقد تحول مراسلو شبكات الإعلام الرئيسية ومقدمو البرامج الإخبارية إلى مومسات لصناع الحرب. ويمارسون بغاءهم الإعلامي في الوقت الذي تتطاير فيه الصواريخ والقنابل على المدنيين، وبعد أن تضع الحرب أوزارها يكون من السهل عليهم القول:"يا إلهي، كان ينبغي أن نكون أكثر استقلالية في عملنا." ثم تأتي الحرب الثانية فيعيدوا الكرة، ويفعلوا الشيء نفسه.

جيرمي إيرب: كيف يمكن تفسير ذلك؟ دعنا نفترض أن هؤلاء الصحفيين ليسوا بالأشخاص السيئين، وأنهم يتمتعون بقدر من

obeikandi.com

المسؤولية والمهنية في العمل. من الممكن أن يبدو ذلك وكأنه مؤامرة في نظر كثير من الناس، وأنهم مومسات للحرب. كيف يمكنك أن تفسر سبب حدوث شيء كهذا؟ ما الذي يدفع كثيراً من هؤلاء الصحفيين المتميزين، الأذكياء، إلى الانخراط في مثل هذه المواقف؟

كم من الناس في أماكن عملهم، مهما كانت طبيعة وظائفهم، يملك الجرأة لأن يخالف رئيسه ويقول له اذهب إلى الجحيم، ويحدث القلقلة في مكان عمله، ويخاطر بوظيفته ومستقبله المهني؟ إن الصحفيين ليسوا بأكثر أو أقل شجاعة في وظائفهم وأعمالهم من الناس الآخرين. فهم لديهم التزامات مالية، وأقساط السكن، ومصاريف الأولاد وتأمين نفقات تعليمهم، ويرغبون في تأمين حياتهم في المستقبل. هذا هو ما يحدث. ولا يتطلب الأمر أن تكون عبقرياً أو مهندساً اجتماعياً لتدرك أنك لو كنت في مكان توم بروكو(*)، وتعمل لدى شبكة إن بي سي. وفي واقع الأمر أنت تعمل لدى شركة جنرال إليكتريك(*). وجنرال إليكتريك هي من الشركات التي ترتبط بعقود توريد ضخمة مع الجيش. وإذا رغبت بإعداد سلسلة من التقارير الإخبارية حول المستفيدين من الحرب في الولايات المتحدة فإن ذلك لن يكون مفيداً لارتقائك المهني في تلك الشركة، ولن ينال إعجاب وتقدير رؤسائك فيها. إلا أن بروكو ليس بأفضل مثال على ما نقول بالنظر لشهرته المرموقة وارتفاع دخله. فهناك أعداد كبيرة من الصحفيين والإعلاميين غير المشهورين، أو الذين يتقاضون رواتب متواضعة ويفتقرون إلى الأمن الوظيفي في عملهم. وعلى العموم، وباستثناء بعض الأشخاص، فإنهم لن يقولوا: "سأقف موقف الشرف والمبادئ في هذه القضية حتى وإن كان ذلك يعني فقدان وظيفتي أو عدم الارتقاء في السلم الوظيفي أو الدخل المادي."

(*) مقدم نشرة الأخبار المسائية في محطة إن بي سي الأمريكية.

(*) تملك شركة جنرال إلكتريك شبكة إن بي سي.

جيرمي إيرب: حول هذه النقطة، ذكرت في كتابك استهدف العراق أن حرب الخليج الأولى (حرب تحرير الكويت عام 1991) مهدت الطريق أمام بروز ظاهرة "الصحفيين المدمجين" في الوحدات العسكرية. وقد تكون فكرة الصحفي المرفق بالجيش أمراً محموداً بالنسبة للناس الذين يقولون بأنه أخيراً أصبح بالإمكان مشاهدة الأمور كما تحدث على أرض المعركة. لقد استفدنا من قيام البنتاغون باصطحاب الصحفيين في الحملة العسكرية الأولى في الخليج، وكان الصحافيون على أرض المعركة ينقلون إلينا الأحداث كما تقع بطريقة لم نشاهدها من قبل". هل لكم أن تحدثونا بالمزيد عن حرب الخليج ودورها في ظاهرة الصحافيين المدمجين؟

إن القيام بإبدال شيء مكان شيء أو إعادة ترتيب الأشياء لا تعني بالضرورة إحداث تغيير أساسي. كما أن التغطية الإعلامية لحرب العراق عام 2003 تختلف عن التغطية الإعلامية لحرب الخليج الأولى عام 1991 من حيث الأسلوب. إلا أن إدماج الصحفيين يهدف في حقيقة الأمر إلى وضع الصحفيين والمؤسسة العسكرية في صف واحد(*). هذا هو ما فعله الصحافيون في واقع الأمر. فهم ينتقلون برفقة كتائب الجيش التي يعتمدون عليها في المطعم والمشرب والمسكن والرعاية الصحية والحماية والبقاء طيلة فترة بقائهم وإلى حين انتهاء مهمتهم. وقد لاحظت من خلال مشاهدة برامج محطات سي إن إن، وإم إس إن بي سي، وفوكس وجود نوع من المودة والألفة بين المراسلين الصحفيين الذين يغطون الأحداث وبين وحدات الجيش التي يرافقونها. وقد سمعت أحد

(*) جاء تعبير المتحدث مستخدماً عبارة وضع الصحفيين والمؤسسة العسكرية في "فراش واحد" (in bed) وهي عبارة تجانس في لفظها وبنائها كلمة (embed) التي تعني المدمج. وهو ما ينسجم مع وصفه للصحافيين بالمومسات في تغطيتهم الحرب في العراق.

الصحفيين يقول:"... هؤلاء الجنود، إنني أعرفهم جيداً ويعرفونني جيداً. وهم يثقون بي." وفي الواقع أن هذه العلاقة الحميمة لا تفيد في العمل الصحافي، فعندما يثق بك الأشخاص الذين تقوم بنقل أخبارهم إلى العالم الخارجي أنك لن تنقل ما لا يرغبون بنقله، فإن ذلك يشكل علامة تحذير كبيرة تشير إلى وجود شيء غير سوي في هذه الترتيبات. وإذا عاينا التغطية الإخبارية لأحداث حرب العراق عام 2003، فسنجد، مع بعض الاستثناءات القليلة، أن الصحفيين الذين كانوا يرافقون الجنود قاموا بنقل الأخبار بطريقة ترضي البنتاغون. أما التغطية الأفضل فجاءت من المراسلين غير المدمجين في الوحدات العسكرية وغير المرتبطين بالمؤسسة العسكرية. وكما أشار أحد مراسلي شبكة إي بي سي فإن الصحفيين غير المدمجين بإمكانهم تغطية ما يحدث بعد مغادرة الجنود- أي المعاناة والدمار وجنائز الضحايا والغضب، والإصابات، والأطفال المشوهين بفعل القصف. أما الصحفيون المدمجون فهم كالمحاربين من الداخل، فقد كانوا شخصيات مهمة تتحرك مع الجيوش المنتصرة؛ إن الحرب لا تقتصر على النصر وحسب؛ بل تتعلق بالمأساة والمعاناة أيضاً.

جيرمي إيرب هل لكم أن تحدثونا عن التغطية الإعلامية للخسائر في هذه الحرب هنا في الولايات المتحدة بالمقارنة بالمصادر الأخرى للأخبار- ولا أقصد بالمصادر الأخرى محطة الجزيرة فقط، بل الإعلام الأوروبي؟

إذا كنت ستضع الصحفيين الأمريكان ضمن الجيوش الأمريكية، فإن المنطق يقضي أن تضع صحفيين ضمن المدنيين العراقيين. ولو كان هناك صحافيون أمريكيون مدمجون مع الأسر العراقية التي كانت تنهال عليها قنابل زنة 2000 رطل وصواريخ كروز، لكان بالإمكان نقل صورة متوازنة في الإعلام المرئي والمسموع والمقروء لما يجري هناك. وقد قامت الصحافة البريطانية بتغطية

أفضل للجوانب الإنسانية في هذه الحرب. فنقلوا لنا صورة ما يعنيه أن تكون تحت هذه القنابل؟ ما ذا يحدث في غرف الطوارئ في المستشفيات؟ وأنا أتحدث بشكل عام، لأنه ظهر في الإعلام الأمريكي بعض التقارير المتميزة، آن غاريل لم تكن ضمن الصحفيين المدمجين، كانت في بغداد خلال الحرب، وقدمت بعض التقارير المؤثرة لحساب محطة إن بي آر (محطة الراديو الوطني العام)، إلا أن الاستثناء لا يشكل جوهر التضليل الإعلامي، لأن جوهر التضليل الإعلامي يكمن في التكرار كما هو معلوم لدى أي متخصص في الدعاية والإعلام. وهذا لا يقتصر على استخدام الكلمات والعبارات التي تجلب الانتباه والتي يجري تكرارها، ولكنه يشمل الصور التي ترافقها. فما الذي يعرض أمام المشاهد وما الذي يحذف. ولهذا السبب لم ينزعج البنتاغون من التغطية الإعلامية التي كان فيها بعض الإنصاف. وباستثناء بعض الحالات كانت محطة الراديو الوطني العام (إن بي آر) تبدو وكأنها محطة الراديو الرسمية للبنتاغون. فقد كانت النبرة العامة لما يبث عبر موجات الأثير تعكس صراحة وتلميحاً أن حياة بعض الناس لها قيمة وأن حياة أناس آخرين ليس لها أي قيمة أو اعتبار، وأن هناك ضحايا أهل للشفقة والرحمة، وضحايا لا يستحقون الشفقة والرحمة. ومعيار التمييز في هذا تستقى من البنتاغون. نحزن ونأسف على الأمريكان الذين يموتون. أما الموتى العراقيين، فمن سوء الحظ، هذه هي الحرب.

جيرمي إيرب: هل لك أن تحدثنا عن العبارات الملفتة للانتباه والأنماط الإعلامية التي كثر تكرارها في وسائل الإعلام التي ذكرتها؟

لقد زرت بغداد في سبتمبر من عام 2002، وديسمبر من عام 2002. ويناير من عام 2003، وكنت أسير في الشارع وأتصور ماذا سيحدث بعد سقوط صاروخ كروز على المنطقة. زرت مستشفى الأطفال في بغداد. ذهبت إلى هناك مرتين، وأذكر أنني ذهبت في المرة الثانية برفقة شان بن وتمشينا خلال أقسام

OpenKarnal.com

المستشفى، وشاهدنا الأطفال الذين يعانون من اللوكيميا والسرطان. كان المشهد فظيعاً في ظل نقص الدواء نتيجة الحصار الذي تزعمته الولايات المتحدة على العراق. وكان العلاج الكيماوي للسرطان غير متوفر أو متوفر على فترات متقطعة نتيجة للعقوبات. وقال لي شان بن شيئاً كان له أثر حاد في نفسي. قال لي عندما خرجنا من المستشفى:" لو كنت في مكان هؤلاء الأطفال، فإنك لا تحب أن تسمع الباب يغلق بشدة، فكيف بك إذا سمعت سقوط القنابل". وتصورت كيف ستكون حال هؤلاء الأطفال أو حال آبائهم الذين يعتنون بهم في المستشفى، أو أي شخص آخر في تلك المنطقة، عندما تبدأ الحرب. ويمكن القول أن وصف "إرهاب" هو وصف ينطبق على هذه الحالة.

إذن نحن في عالم تمارس فيه الولايات المتحدة الإرهاب وتقترفه بحق المدنيين على نطاق واسع باسم محاربة الإرهاب. ويمكنك القول أيضاً أن إرهاب الولايات المتحدة إرهاب مستمر لأن صاروخ كروز وغيره من الأسلحة التي تستخدم في هذه الحرب هي جزء مما حدث. وهناك القنابل العنقودية التي استخدمها سلاح الجو في أفغانستان، واستخدمها الجيش الأمريكي في العراق ربيع 2003. وبقيت أعداد كبيرة من هذه القنابل التي لم تنفجر منتشرة حول ضواحي بغداد وبقية المدن العراقية وفي متناول أيدي الأطفال والصبية الذين يلعبون في الشوارع. وعندما تنفجر هذه القنابل تتطاير الشظايا المعدنية ممزقة أجساد هؤلاء الأطفال الصغار ومتسببة في تشويههم أو قتلهم على الفور. وهذا أيضاً من باب إرهاب وترويع الناس. ولذلك فإن عبارة الحرب على الإرهاب، عكس هذا النوع من الإسقاط بأن الشر كله هو في الطرف الآخر وأن كل شيء يفعله البنتاغون أو يأمر به البيت الأبيض ويوافق عليه الكونغرس يدخل في باب تحدي الإرهاب، في حين أن الحقيقة هي أنها تسبب الإرهاب لكثير من الناس.

جيرمي إيرب: وماذا عن عبارة "الصدمة والترويع"؟

هذا الشعار الذي أطلق على الحملة الأمريكية على العراق كان من قبيل الشعارات البراقة، وجرى استخدامه ليصف بشكل بارز الاستعراض الكبير للقوة النارية الأمريكية التي تعني القصف المكثف وغير المسبوق بالقنابل والصواريخ على بغداد. وجرى الحديث عنها لأسابيع وأسابيع قبل الحرب. وأول ما رأيت هذه العبارة في الصحافة البريطانية، كما جرى الحديث عنه في الصحافة الأمريكية قبل العشرين من مارس من عام 2003، ثم أصبحت هذه العبارة ترنيمة الحرب التي تتردد في وسائل الإعلام. ولعل استخدام مثل هذه الشعارات هو من قبيل الحرب النفسية الموجهة ضد نظام صدام حسين، إلا أن هذا المصطلح شاع استخدامه وأصبح "موضة" إعلامية. وهذا الشعار تحديداً هو النافذة الزجاجية التي نشاهد من خلالها الفساد الذي لحق باللغة، والفساد الذي لحق بالمواطنة والأخلاق العامة والخطاب الديمقراطي. والهدف منه هو تخديرنا وتبليد أحاسيسنا باستخدام الكلمات والصور. لا تفكر، لا تشعر، وسر مع التيار. وإذا فكر صانعو الحرب أنه حان الوقت لشن الحرب، فلا تفكر كثيراً ولا تتعمق بالتفكير بآثار ذلك على بني البشر.

وتبدو التناقضات بالنسبة لكثير من الناس الآن أكثر تطرفاً ونحن ننظر إلى الحرب في العراق، لأن هذه الحرب قامت على أفظع وأشنع الأكاذيب منذ البداية وحتى النهاية. لذلك، وبغض النظر عما إن كان المرء مسالماً أم عدوانياً، فإن حقيقة أن هذه الحرب تأسست على الأكاذيب تدفع التناقضات إلى أبعد الحدود. وما تبقى لدينا هو أن الوسائل الاعتيادية التي تستخدمها وسائل الإعلام لتشجيع الناس هو أن يشعروا بالمتعة من هذه الحرب. وهذه النقطة هي في غاية الأهمية لأن الرسالة الحقيقية من صانعي الحرب في واشنطن والإعلام لا تقتصر على وجوب أن نتقبل هذه الحرب، بل يجب أن ندرك أنها ضرورية، لذلك يجب أن نتقبلها بصدر رحب، وأن نشعر بالفخر والاعتزاز بها- وهي حرب تشوه الأطفال

وتقتل الأبرياء- وعندما تبنى الحرب على الأكاذيب، فإنه يجري تقديمها على أنها شيء جدير بالافتخار؛ ويجب أن تغذي بك الشعور بالفخر بأنك أمريكي.

لقد شهدنا في الفترة التي سبقت الحرب نوعاً من الترويج الإعلامي لتقديس وعبادة الأسلحة، وفي ذلك الوقت لم يكن أمام وسائل الإعلام حرب لتغطيتها، لذلك لم تكن هذه الأسلحة مستخدمة. وكنا نشاهد على صفحات جريدة يو أس إيه تودي وعلى شاشات محطات التلفاز الرئيسة وغيرها صوراً متقنة من التصاميم والرسومات المصممة بواسطة برامج الحاسوب لمختلف أنواع الأسلحة والعتاد: الطائرات المقاتلة الحديثة، أسلحة الجيش ومعداته، والسفن الحربية والطوافات وغيرها من الأسلحة ذات التصاميم الجذابة ويصاحبها شرح مفصل لمواصفاتها ومزاياها، في عرض أشبه ما يكون بعبادة وثنية لهذه المعدات العسكرية. ولم يكن كافياً أن يقال لنا عليكم أن تقبلوا بهذه الحرب، بل كان يفترض فينا أن نشعر من خلالها بالمتعة التبعية.

جيرمي إيرب: قبل لحظات ذكرت أن التصور الذهني يقود نظرتنا إلى الأشياء ولغة الخطاب، وتحدثت في إحدى مقالاتك عن سوزان سونتاغ(*) وكيف أن نظرتنا إلى الصور تتأثر بذاتنا وماضينا..الخ. هل لك أن تحدثنا حول الرسالة التي قصدتها من تعليقك على سوزان سونتاغ وكيف يعمل التصور، وكيف ينظر أناس مختلفون إلى الصورة الواحدة فيرى كل واحد منهم شيئاً يختلف عما يراه الآخرون؟

عندما ننظر إلى الصورة فإننا نشاهدها ضمن سياقنا الخاص، وهناك ميل، حتى لدى المعارضين للحرب نحو إسقاط ردود فعلنا على الناس الآخرين الذين

(*) سوزان سونتاغ، اسمها الأصلي سوزان روزنبلات، كاتبة أمريكية (1933-2004) تلقت تعليمها في جامعتي شيكاغو وهارفارد، ودرّست الفلسفة في عدد من المؤسسات. تركزت كتاباتها حول المقاربة الفلسفية لجوانب الثقافة المعاصرة كالأفلام والموسيقى والصور ولها عدد من المؤلفات والروايات في هذا الحقل. (الموسوعة البريطانية، بتصرف).

قد يكون لديهم شعور مختلف لسياق الحرب أو سياق صورة ملتقطة من الحرب. هناك ميل، حقاً، لإسقاط معاني الصورة، وكما تذكر سوزان سونتاغ، فإن شخصاً ما يمكن أن ينظر إلى صورة جندي في وسط المعركة فيقول إن الحرب شيء فظيع، هذه الحرب خاطئة. ويمكن لشخص آخر أن ينظر إلى الصورة نفسها فيقول، إن هذا الجندي يستحق كل الإعجاب على تحمله كل هذه المخاطر والمصاعب. إن هؤلاء الجنود لديهم الاستعداد للقتال من أجل ما هو صحيح. وفي الحقيقة هناك دائما استمتاع بالتبعية يشعر به كثير من الناس الذين يرون قيمة الحرب من التغطية الإخبارية التي قد تعكس بعضاً مما يحدث، وفي نوع خاص من قلب الحقيقة، ينظر بعض الناس إلى التغطية التلفازية للحرب قائلاً: " إن هذا حقيقي، ويبدو وكأنه فيلم شاهدته على ساينبلكس، فما هو المرجع إذن؟

أعتقد أن مارك كرسبن ملر قال ذات مرة" يبدو أنه لا أحد يموت حقيقة في التلفاز لأنه لا أحد يعيش أصلاً فيه" ويشير ملر هنا إلى نقطة هي في غاية الأهمية حول أسطورة أن التلفاز جلب الحرب إلى غرف المعيشة في منازلنا. ويضيف ملر، هل يمكننا أن نفكر في أي شيء آخر غير الحرب عدا عن مشاهدة هذه القطعة من الأثاث في الغرفة؟ فأنت تستيقظ في الصباح، وتذهب إلى المطبخ، ثم إلى الحمام، ولكن لا ينفجر حولك شيء، ولم يسقط السقف فوق رأسك. وهذا نوع من الغرور الذي نعاني منه منذ حرب فيتنام. تلك المقولة الدراجة بأن التلفاز نقل ساحة المعركة إلى غرف الجلوس. فهذا محض هراء. ومرة أخرى يعتمد ذلك كله على التفسير والتأويل الذي نضعه على ما نشاهده، إلا أن أجهزة التلفاز لا تنفجر وهي محصورة ومحددة، ولا تقدم في الغالب أي شيء عدا عن الترفيه والتسلية، وتأكيد التصورات الخاطئة لدى الناس.

جيرمي إيرب: وماذا عن التغطية الإعلامية لهجمات 11 سبتمبر ضمن هذا السياق؟

كانت التغطية الإعلامية للحادي عشر من سبتمبر كانت وضيعة وخطيرة إلى حد بعيد. وكانت الخرافة السائدة عن الولايات المتحدة بأنها الدولة التي تصلح كل ما هو عاطل. فالعم سام هو الشخص الذي سيذهب إلى فيتنام ويصلح الأمور هناك ويجعلها صحيحة. كانت تلك الأسطورة هي التي أفرزت المسوغات كثير من الحروب في العقود الأخيرة. ولكن ومنذ البداية أضاف 11 سبتمبر عنصراً آخراً في هذه المفاهيم وفي التغطية الإعلامية والخطاب السياسي، كما كانت في نطاق الانقسام الأيديولوجي في الولايات المتحدة- وهذا العنصر هو أن الولايات المتحدة أصبحت ضحية: فالآن لسنا فقط القوة العسكرية الرائدة في العالم، ولسنا فقط القوة العظمى الوحيدة، بل أصبح الشعب الأمريكي في مقدمة الشعوب "الضحية" في العالم.

وأعتقد أن هذا هو ما كان يقصده نعوم تشومسكي. ونجد أن أشخاصاً انتهازيين مثل كريستوفر هيتشنز وغيره من اليمينيين الذين يهاجمون تشومسكي على فكرة هي في غاية البساطة تقول بأن قيمة حياة البشر كلهم متساوية، وأنك إذا أردت وضع معيار لحقوق الإنسان وكان لديك التزام أصيل نحو الحياة البشرية كما تدعي، فإنه لا يجوز لك أن ترفع من شأن موت بعض الناس وتجعلهم أكثر أهمية من موت الآخرين. وكتب إد هيرمان ونعوم تشومسكي حول ما أطلقوا عليه "الضحايا ذوو القيمة" و "الضحايا عديمي القيمة". وهم يتحدثون عن مقدرة الرئيس ووسائل الإعلام في التعبير صراحة وضمناً بأن هؤلاء الضحايا يستحقون أن نبكي عليهم، في حين أن الضحايا الآخرين لا يستحقون أن نذرف عليهم دمعة واحدة. ليس هذا وحسب، بل يجب أن نفتخر لأننا صيرناهم ضحايا، فنحن بعد كل شيء نقوم بمهمة مقدسة. وهذه الأضرار الجانبية التي تحدث أثناء ذلك هي من سوء الطالع، إلا أنها جزء من جهود نبيلة وعظيمة.

وحالما نقرر أن هناك ضحايا لهم قيمة وضحايا ليس لهم قيمة، وأنه عندما يموت الأمريكي، أو حتى غير الأمريكي على الأرض الأمريكية، فإن موته يكون أكثر أهمية من موت الآخرين وبخاصة إذا كنا نحن الذين تسببنا في موتهم. ونحن كشعب في الولايات المتحدة ومن خلال سكوتنا وما ندفعه من أموال الضرائب والتي تمكن البنتاغون من فعل ما يفعل. وأنا أشير إلى هذا عادة بالسؤال لمصلحة من يقرع الجرس. وعندما تسأل عمن يقرع له الجرس، فأنت تسأل عن تفسير عقلاني للفظائع.

قمت مؤخراً بإجراء بحث في قاعدة بيانات نيكسس ميديا في الأشهر الأولى من عام 2003 عن كلمة "نورمبيرغ". وبحثت ضمن قاعدة بيانات برامج الراديو الوطني العام عن أي نقاش حول محاكمات نورمبيرغ في ذلك الكم الهائل من البرامج التي غطت التحضير للحرب والبرامج التي غطت الحرب. فهل كان هناك أي ذكر لمحاكمات نورمبيرغ أو المبادئ التي قامت عليها؟ لقد جاء ذكر الكلمة أربع مرات في الأشهر الأولى من عام 2003 ولم يأت ذكرها في سياق المحاكمات نفسها أو القلق حول الحرب في العراق. وهي حرب عدوانية بلا شك. لقد أوضح القاضي روبرت جاكسون من المحكمة الأمريكية العليا والذي توجه إلى نورمبيرغ عام 1945 بأن محاكمة زعماء النازية لم تكن لأنهم خسروا الحرب، بل لأنهم شنوا حرباً عدوانية. ووصفها بأنها تشكل جرائم ضد الإنسانية ليس لها أي مسّوغ. لذلك فإن من المنطقي أن نسأل: أليس جورج بوش مذنباً بالجرائم نفسها التي أدين بها الأشخاص الذين قدموا إلى المحاكمة في نورمبيرغ؟ وماذا عن دك تشيني؟ كولن باول؟ دونالد رمسفيلد؟

باختصار، عندما تكون بعض الأفكار خارج نطاق النقاش، وعندما لا يتم الحديث بعمق عن النفاق الصارخ والتناقضات في وسائل الإعلام فإننا نكون أمام بيئة إعلامية سفيهة. وفي الواقع العملي هناك مسخ فكري للرأي العام الأمريكي

Obeikandi.com

ويجري التعامل معه إعلامياً على مستوى الأطفال غير المميزين، وبخاصة في أوقات الحرب. وليس من المفروض فينا أن نلاحظ ذلك. وقد جرى الحديث بعد 11 سبتمبر عن نهاية المفارقة، ولكن طبعاً لا يمكن القضاء على المفارقة بسهولة. والناس يلاحظون المفارقات، ولكن هناك ما يشبه تحريم المفارقات غير المسموح بها في وسائل الإعلام في هذا البلد. فعندما تتحدث عن جورج بوش والحرب في العراق، فإنه لا يمكنك أن تتحدث عن نورمبيرغ.

جيرمي إيرب: فيما يتعلق بهاذ التفاعل بين الموقف الدفاعي والموقف الهجومي العدواني، فإن من غير المرجح أن يدعم الشعب الأمريكي حرباً عدوانية. ولهذا السبب ظهرت الحاجة إلى إيجاد ذريعة؛ كنا بحاجة إلى أسلحة دمار شامل. وفي الوقت نفسه وبعد أن ذهبنا إلى العراق. فإنه يبدو أن الأمريكان يحبون حربهم. وهناك كثير من الناس يعشقون كل ما يتعلق بالكاوبوي وما يتعلق برامبو. ويبدو أن الناس لا ينظرون إلى ما يحدث على أنه تسلط وسطوة على الرغم من أن هذا ما يظهر لمعظم الناس في بقية العالم. هذا التفاعل بين الدفاع والعدوان، الدفاع عن نفسك كذريعة للاعتداء. هل أن لك تعلق على ذلك؟

تم الترويج للحرب على العراق في الولايات المتحدة على اعتبار أنها حرب دفاعية. وهذه الفكرة تنتشر في لغة خطاب إدارة بوش ومؤيديهم في وسائل الإعلام. إننا ندافع عن أنفسنا، وقد يكون هناك أسلحة نووية، إلى ما هنالك من الادعاءات التي لا تصمد أمام التمحيص. ولست بحاجة إلى أن أكون أكثر ذكاءً لكي أرى أكثر مما يمكن للشخص العادي أن يراه. لقد نظرت في تلك المسألة، وبدا لي أن من غير المعقول أن يمتلك العراق برنامجاً للأسلحة النووية. وقد طبعت كتابي "استهدف العراق" قبل أشهر من بدء الحرب، وذكرت في الكتاب أنه

لا يوجد في العراق برامج أسلحة نووية. لأن ذلك يخالف المنطق. ومع ذلك كانت إدارة بوش تقول أشياء أخرى تخالف العقل والمنطق. واقتنعت وسائل الإعلام بالفكرة القائلة بأن هذه الحرب حرب دفاعية. وطالما أن غالبية الناس مقتنعة بأنها حرب دفاعية فإنهم سيؤيدونها. وفي هذه الحالة، وكما في كثير من الحالات الأخرى، كان الإدعاء محالاً. وفي العادة عندما يدعي شخص شيئاً فإنه يحتاج إلى تقديم دليل على ادعائه قبل أن يقتنع أحد بذلك الإدعاء، إلا أن هذا كان وضعاً مختلفاً تماماً؛ وكما جاء في رواية "النظر من خلال الزجاج": الحكم أولاً ثم الدليل لاحقاً. هذه هي الطريقة التي تصرفت بها إدارة بوش، وكان باستطاعتهم مع مساعدة وسائل الإعلام إقناع الناس بها. وقالوا لنا إن هذه الحرب هي حرب دفاعية. وإذا لم نهاجم العراق فإن السحب النووية سترتفع فوق المدن الأمريكية. وكانت وسيلة ناجحة. ولكن ذلك هو باعتقادي شهادة على أثر وقوة الإعلام في تضليل الشعوب وإقناعها بأمور ليس لها أساس من الصحة.

جيرمي إيرب: الخوف، الدفاع، جنون الارتياب، الارتعاب، هذه الصفات ليست من السمات الأمريكية، ولا تتوازى مع الأسطورة الأمريكية والكيفية التي نرى فيها أنفسنا كأمريكان، وهي تبدو أكثر صلة بما يقوله روبرت كيغان وغيره من مفكري المحافظين الجدد عن "أوروبا العجوز"، وكيف أن أوروبا لا تملك قوة ومنعة أمريكا. هل يمكنك أن تتوقع كيف سيضع كارل روف وخبراؤه الإعلاميون جورج بوش في صورة القائد القوي مع التشكيك في الوقت نفسه برجولة وقوة أي مرشح ديمقراطي بغض النظر عمن سيكون هذا المرشح؟

في أكتوبر من عام 2003 ذكر جورج بوش بأن وسائل الإعلام كانت تحجب بعض الأخبار المعينة عن الوصول إلى الجمهور، فاضطر إلى التوجه إلى المحطات

المحلية لتوصيل رسالته. وهذا القول ينطوي على مفارقة لأن إدارة بوش كانت هي الطرف المستفيد من عمليات التنقية الإعلامية للأخبار والتي تسمح ببث نوع محدد من الأخبار. وفيما عدا بعض الاستثناءات، كانت تحجب الأخبار التي تناقض الرواية الرسمية للأحداث. ولو قارنا المقولة المشهورة عن الرئيس الأمريكي السابق فرانكلن ديلينو روزفلت من أن "الشيء الوحيد الذي يجب أن نخاف منه هو الخوف نفسه"، فإن رد بوش على هذه المقولة هو "إن الشيء الوحيد الذي يجب أن نخاف منه هو عدم وجود ما يكفي من الخوف". لأن الخوف هو الأداة الوحيدة التي قدمت لمؤيدي الحرب المسوغات لزيادة نفقات البنتاغون – والتي تجاوزت الآن مليار دولار في اليوم- والانخراط فيما يسميه جون ستوكويل العميل السابق لوكالة الاستخبارات المركزية، عمليات بحث عن أعداء.

ولدى هذه المجموعة قائمة طويلة من الأعداء من الدول الأخرى. والخوف هو الأسلوب الوحيد الناجع لتحقيق أهدافهم. لأن معظم الناس في الولايات المتحدة لا يريدون الحرب. فمعظم الناس لديهم أبناء وبنات وأصدقاء في الجيش، وهؤلاء إما أنهم سيقتلون أو يقتلون إذا ما قامت الحرب. كما أن الحرب استنزاف للاقتصاد الوطني. ولكن يمكن للمحللين الإعلاميين أن يقنعوا الشعب بهذه الحرب عن طريق استخدام الخوف: إذا لم نقم بعمل الشيء الفلاني فإن الولايات المتحدة ستعاني من كذا وكذا من الفظائع. وهذا هو ما يرجح كفة التأييد الشعبي. كما أن 11 سبتمبر كان مصادفة سعيدة لسياسات الخوف. وكل ما كان يردده باول وبوش وتشيني هو:"لا تقلقوا بشأن التفاصيل، إننا بحاجة إلى توجيه الضربة الأولى، وسوف نهتم بتفاصيل الدليل فيما بعد" أو كما تقول العبارة المشهورة:" أقتلهم جميعاً، واترك مهمة تصنيفهم للرب".

جيرمي إيرب: لنتحول الآن إلى موضوع آخر وهو العملية الإعلامية

التي جرى من خلالها استبدال أسامة بن لادن بصدام حسين كوجه للإرهاب بعد 11 سبتمبر؟

لدينا ما يشبه الدمج بين انتهاكات حقوق الإنسان- انتهاكاتنا نحن لها- بالأعداء اللدودين للحكومة الأمريكية. ويتمثل ذلك بقدرة، أو سلطة، الرئيس أو وزير الخارجية، أو وزير الدفاع في بالاحتجاج بتقرير صادر عن جهة ما قائلاً إن انتهاكات حقوق الإنسان الواردة هنا هي أمر فظيع لا يمكن السكوت عليه لأننا نهتم كثيراً بهؤلاء الناس خاصة، ولأن هذا الزعيم الأجنبي سيء ويجب أن نتخلص منه عن طريق القيام بعمل عسكري ضده. وهذه سلطة كبيرة وخطيرة. إن تحديد ما يُقدم للناس على أنه الحقيقة وما يُترك جانباً، وما يهم وما لا يهم يتطلب ممارسة سلطة هائلة. ووضع مثل هذه السلطة في يد المسئولين في الحكومة يعني أن الصحافيين الذين يغطون واشنطن وقضايا ما يسمى الأمن القومي سيُقتادون من أنوفهم.

وقد حددت الحكومات المتعاقبة في واشنطن سلسلة من الأشرار: بدءاً من هوتشي من(*) إلى القذافي في ليبيا، و مانيويل نورييغا في بنما، وموريس بشب في غرينادا، تلك الجزيرة الصغيرة القابعة في الكاريبي والتي لا يتجاوز تعداد سكانها 200 ألف نسمة، من كان يصدق أن هذه الدولة كانت تشكل خطراً على الولايات المتحدة؟ وبالنظر إلى الوراء فإن هذا الإدعاء يبدو من المحال، إلا ذلك كان هو العدو المحدد في تلك السنة، أو الشهر. ثم بعد ذلك، يتم إعادة ترتيب القائمة ليخرجوا علينا بشخص جديد يكون عدو الساعة.

لم نكن نسمع بصدام حسين قبل أن يقلب ظهر المجن لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية -صاحبة الفضل في وصوله إلى سدة الحكم- باحتلاله

(*) هو تشي من (1890-1969) مؤسس الحزب الشيوعي في الهند الصينية عام 1930, ورئيس فيتنام خلال معظم الحرب الفيتنامية الأمريكية.

الكويت. فتحول بعدها إلى شخصية شريرة. إن هذه الصلاحية في تصنيف الناس إلى أشرار وأخيار هي من الصلاحيات القوية في يد المسئولين في واشنطن. وأجد لزاماً عليّ القول بأنه وعلى المستوى السيكولوجي فإننا أمام حالة من الإسقاط هنا. خذ على سبيل المثال، مانيويل نورييغا عام 1989. فبعد أن تقلد كولن باول رئاسة هيئة الأركان المشتركة، أخذ ينادي بفكرة أن بنما بقيادة نورييغا تشكل تهديداً على أمن الولايات المتحدة، وأنه يجب احتلال ذلك البلد. مع العلم أن نورييغا كان من بين العملاء المدرجين على سلّم رواتب وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية في ذلك الوقت، وكان صدام حسين أيضاً من الزعماء المفضلين لدى تلك الوكالة لبعض الوقت إلى أن قام باحتلال الكويت في أغسطس من عام 1990. لذلك، فنحن أمام هذه الديناميكية المتقلبة: إنه الشخص الخيّر، إنه الشخص الشرير. وكان صدام حسين يرتكب الفظائع حين كان ضمن تصنيف الأشخاص الأخيار، وهو ما يزال يرتكب الفظائع حين انتقل إلى قائمة الأشرار. ولسنا ندري ما يدور في خلد شخص مثل كولن باول أو دونالد رمسفيلد، إلا أننا نجد هذا الإسقاط الشاسع على المستوى السياسي.

في يناير من عام 2003، كنت في بغداد في اجتماع مع طارق عزيز – الرجل الثاني في الحكومة العراقية بعد صدام حسين– وكان يرافقني دنس هاليدي، المدير السابق لبرنامج النفط مقابل الغذاء في بغداد، وحدث أنه كان يحمل نسخة من مجلة تايم ويظهر على غلافها صورة لدونالد رمسفيلد. فتناول طارق عزيز المجلة وقال:"آه، نعم، إنني مهتم بما هو مكتوب في هذه المجلة". ثم تمعّن في الغلاف الذي تظهر عليه صورة رمسفيلد وقال، "نعم، رمسفيلد، يا له من داعية حرب، لم يكن بهذه العدوانية والشراسة عندما جاء لزيارتنا عام 1983 للاجتماع بصدام حسين في بغداد. لقد جاء إلى هنا وفي جعبته الكثير للحديث حوله. وكان بينهما]صدام ورمسفيلد [مصالح مشتركة كثيرة لمناقشتها." وجلست

هناك أنظر إلى طارق عزيز ببذلته الأنيقة، ولغته الرصينة، ورحت أفكر في وصف "الشر الدمث." لقد كان هذا الشخص دمثاً كيساً وقادراً على الانخراط في خطاب بارع وبمنتهى الصراحة. إنه شخص من النوع الذي تحب أن تتناول بمعيته طعام العشاء. ومع ذلك، كانت الرسالة التي تبثها وسائل الإعلام الأمريكية عنه تقول بأنه حيوان يختلف تماماً عن القادة الأمريكيين. شخص من طينة مختلفة كلياً. إنه شخص سيء شرير، ونحن الأخيار، ولا يمكن أن يكون هناك قاسم مشترك بين الخير والشر.

لقد وجد "الشر الدمث" في بغداد في ظل حكم صدام حسين، كما هو موجود في واشنطن تحت حكم جورج بوش. وفي الحقيقة أن المكائد المرتبطة بالشر والقتل لدوافع سياسية يمكن تفهمها أكثر في ظل حكم صدام حسين منها في ظل حكم جورج بوش، ولاحظ أنني أقول "تفهمها" وليس تبريرها. ولكن لو أن طارق عزيز تعدى حدوده في هذه الظروف، فإن عليه أن يفكر بأقاربه الذين سيتعرضون للتعذيب أو القتل على يد صدام حسين إذا شعر بأن طارق عزيز خانه. ولكن ما الذي يخشاه أعضاء مجلس الشيوخ، أو أعضاء الكونغرس وغيرهم من المسئولين في واشنطن؟ ربما أنهم يخشون عدم إعادة انتخابهم أو فقدان وظائفهم. أو عدم إعادة تعيينهم في مراكزهم الحكومية؟ وهم بالتأكيد على درجة عالية من الدماثة، ولكن سواء كنا نتحدث عن قصف هانوي بالقنابل أو قصف بغداد، فإن أعداداً كبيرة من المدنيين سيلقون حتفهم نتيجة تقاعس بعض الأفراد عن اتخاذ أبسط المواقف الأخلاقية.

جيرمي إيرب: ما رأيك بالصورة التي أسبغها جورج بوش على أجندة المحافظين الجدد؟

إننا نتحدث عن راعي البقر الذي تحول إلى فرانكلن روزفلت. وما أعنيه هو أن هذا الشخص، وبكل وضوح، أبله فارغ. ولو ألقيت نظرة على تاريخ رونالد

ريغان، وجورج دبليو بوش، وآرنولد شوارتزنيغر، وهذا الأخير هو رونالد ريغان لكن على المنشطات، فإن من غير المتصور ومن النظرة الأولى أن يكون شخص مثل هذا حاكماً لولاية كاليفورنيا ناهيك عن أن يكون رئيساً للولايات المتحدة. إلا أننا رُوّضنا ثقافياً على تقبل ذلك. وما من شك أن هؤلاء الأشخاص ما هم إلا واجهة شخصية. رموز شخصية تلعب دوراً محدداً. إنهم يقومون بوظيفة مرسومة. وثمة تفاعل بين هذه الشخصيات والأدوار التي يؤدونها. إنهم كالمنتجات حقيقة، وهم يخدمون أجندة شركاتية ضخمة. لذلك، فإن من المدهش أن نتحدث عن جورج بوش كفرد وعنه كواجهة شخصية. ومع ذلك، فإننا بعد أن نجد أنفسنا وسط وضع مريع، فإننا في واقع الأمر نتحدث عن نظام كامل موجه بقوة نحو الحرب والأرباح الفاحشة. والتحدي الذي نواجهه هو أن نتخطى هذه الشخصنة لكي نشاهد الريغانية بدون رونالد ريغان، والبوشية بدون جورج بوش بعد أن يذهب كل واحد من هؤلاء في طريقه. إنها مسألة وضع صورة شخص سعيد على آلة الموت، أو وضع ملصقات الوجه المبتسم على الصواريخ والقنابل المتوجهة لترويع الآمنين. كما أن العلم الأمريكي هو الآخر جرى استخدامه واستغلاله بهذه الطريقة.

ما هي الصور المرئية الكبيرة الإيجابية التي وضعت بعد هجمات 11 سبتمبر؟ إنها صور جورج بوش والعلم الأمريكي. إننا أمام حالة هي أشبه ما تكون بعملية استدراج وتحايل لإيقاع الضحية في المصيدة. فلدينا بوش الذي جرى تصويره في وسائل الإعلام بصورة حامي العلم، ولكن هذا العلم نفسه جرى استغلاله. وقام كثير من الناس وبإخلاص شديد، بوضع هذا العلم على نوافذهم وأمام منازلهم ومتاجرهم بدوافع وطنية. ثم، وفي غضون أسابيع، وبدلاً من التكاتف والتعاطف مع ضحايا 11 سبتمبر، جرى إلصاق العلم الأمريكي على الصواريخ التي توجهت لقتل المدنيين في أفغانستان والذين لا يختلفون في

براءتهم عن ضحايا 11 سبتمبر. لذلك فإنني أنظر إلى بوش بوصفه رمزاً يمثل وضع صورة إنسانية على سياسة إجرامية.

جيرمي إيرب: هناك أشخاص في التيار اليساري وفي الوسط، يقولون بأنه لا يوجد فرق بين مرشحي الحزبين الديمقراطي والجمهوري. فهم جميعاً سواء. ما مدى أهمية هذه الانتخابات من وجهة نظرك؟

لسنا أمام أشكال متنوعة من حكومات الحزب الجمهوري. إننا أمام رئاسة تمثل أقصى الجناح اليميني المتطرف. والمساواة بين نظام الحزب الجمهوري الحاكم الآن بالحزب الديمقراطي هو خطأ في إصدار الأحكام. إن إدارة بوش تحتوي على عناصر قريبة جداً من الفاشية، وبعض السياسات التي تبنتها مثل قانون الوطني، وتعطيل مبدأ احتجاز الأفراد بدون توجيه تهمة إليهم، وتعاظم شأن الجيش والتسلح والشركاتية والعنجهية الوطنية، وتلاشي الحقوق والحريات المدنية وغير ذلك، وفكرة أن من المقبول أن نهاجم أي دولة في العالم بحسب هوى الرئيس، هذه السياسيات تقف على حدود الفاشية. ولا أعتقد أنه يجب علينا أن ننتظر لكي نشاهد إلى أي مدى ستصل الفاشية في الولاية الثانية لحكم بوش. وقد يقول بعض الناس بأن هذه مخاطرة يجب علينا تقبلها. وأنا أتساءل على من يعود الضمير "نا" في علينا. هل يعود إلى جموع الناس في الولايات المتحدة وحول العالم والذين سيتحملون الآثار المباشرة للأولويات الاقتصادية والأعمال العسكرية لإدارة بوش. إن من السهل أن يجلس أحدنا هنا ويقول بأن الحزب الديمقراطي هو على نفس الدرجة من السوء، وقد يكون الجمهوريون أسوأ منهم، ولكن ليس هناك فارق كبير. إنني أعتقد أن هناك فوارق مهمة، وأعتقد أن مسؤولية مكافحة اليمين تقع على عاتق التقدميين. وإذا لم نقم بذلك نحن، فسيكون أمامنا خسائر أكبر في المستقبل.

نيو هيفين، كنكيتكت

22 **أكتوبر**، 2003

obeikandl.com